من تراب الطريق (٤٦٤)

فقدان الصدق والميل المرضي (*) إلى الاشتغال بالأغراض الضخمة

بداهة لا اعتراض لى ـ ولا يمكن أن يكون لى اعتراض ـ على الاشتغال بالأغراض الضخمة والإصلاحات الكلية ، فذلك هدف كبير وغاية محمودة إذا ما صدرت من القادرين عليها المنصرفين بصدق وعزم وإخلاص إلى القيام بمهامها وموجباتها ولوازمها وعناصرها ومكوناتها وأركانها ، المستعدين للسعى إلى تحقيقها فى بذل وعطاء وجد واجتهاد ومضاء !

ولكنى أتحدث على هامش ما أثاره أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد فى كتابه الذى لا يُشبع منه : «معالم التقريب» . فحين يخرج الاشتغال بالأغراض الضخمة والإصلاحات الكلية عن هذه الأغراض والغايات والعزوم والمقاصد والقدرات ، يكون محض ظاهرة مرضية استعراضية تعكس فقدان الصدق والرجاء وضمور الإرادة والهرب من ملاقاة الواقع ومعاناته .

أليس غريبا أن يخفق العجزة وأشباه العجزة ، عن أداء المهام الصغيرة والقيام بأعبائها الجزئية أو البسيطة ، ثم تراهم يتمنطقون ويتقدمون الصفوف ويتسابقون إلى صفحات الإعلام المرئى والمسموع والمقروء ليبشروا الناس بأنهم قد نذروا أنفسهم وحيواتهم وجهودهم لأغراض ضخمة وإصلاحات كلية كبرى لا يكادون يفقهون فيها شيئا . وهذه الميول المرضية المظهرية تدفع إلى الذهن أسباب إعراض أمثال هؤلاء عن الممكن المقدور عليه المتناسب مع قدراتهم المحدودة ، والإقبال ـ شكلا لا مخبرًا ـ على التماس الضخم الشامل

(*) المال ٣٠/٦/٢٠١٠ .

الكلى !! من المحال أن يجرى ذلك إلاّ إذا كان أصحاب هذا التظاهر قد فقدوا الرجاء والثقة فى استطاعتهم أن ينجزوا شيئا ذا قيمة ، فصاروا يتظاهرون ويستعرضون اللياذ بالأمانى الكبرى التى لا يستطيع النهوض بها إلاّ ذوو العزائم الماضية والقدرات المتميزة والإمكانيات الحقيقية المشهود لها وبها .

من المؤسف أن هذه الآفة تفشت وانتشرت ، وصرنا نرى العاجزين عن القيام بمسئولياتهم ومهام عملهم الشخصية ، ينبرون لتقدم الصفوف تحت شعار أن كلا منهم «طبيب الملايين» .. بيده مبضع سحرى يستطيع أن يزيل به كل أمراض وأسقام وآلام البشر !

ومن المؤسف أيضا أن تقترن هذه الآفة المرضية التى تعكس أمراض المظهرية والفراغ والتفاهة والادعاء الكاذب ، بظاهرة مرضية أخرى هى التعلق ـ بلا فهم! بالماضى والماضين ، والقعود عن دراسة واقع الحاضر واستشراف احتمالات المستقبل . نعم للماضى قيمة تتمثل فى دراسته والإحاطة بعبره واتخاذه قوة ، ولكن لتقدير خطوات الحاضر نحو مستقبل أكثر إشراقا .

ومن التصورات التى شاعت من قديم ، أن أمس كان أفضل حالًا من اليوم ، وأنه طبقًا لهذه الوتيرة سيكون غدًا أسوأ من اليوم ، وأنه كلما مضى بنا الزمن ابتعدنا عن حظوظنا من الهداية والاستنارة والاستقامة ، ببعدنا عن الإشراقة العظيمة التى أتى بها القرآن المجيد ، وأنه لذلك فإن كل جيل يأتى يكون أقل خيرًا من الجيل السابق عليه ، وأنه مع دوران الزمن وتعاقب الأجيال وتراكم التدهور ، يفقد الحاضر ما كان طيبًا فى الماضى لدى السلف الصالح .

وهذا التصور المتشائم ليس رأى الإسلام ذاته ، وإنما أتانا ذلك من تقديسنا لكل ماهو ماضٍ ، ومن اعتزازنا وفخرنا بالآباء والأسلاف .. وحين يطول العهد بهذا الإعزاز ويمازجه الشعور بهزيمة الخير والمحبة والحق ، واليأس من إمكان مقاومة الشر والأشرار ، يزداد النزوع بالقلوب وبالخيال إلى الماضى لتلمس العزاء فيه عما بالحاضر من بعد عن الخير والصلاح والفضيلة والحق .. ويقبض الناس على هذا الماضى بعنادٍ وتعصب وإصرار، حين لا ينجح الحاضر فى اكتساب ثقتهم ، أو حين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم .

على أن إكبار عصر النبوة وأمجاد الإسلام وأئمته وأعلامه، وهو طبيعى ومعقول بل ومطلوب ، لا يقتضى هذه النظرة المتشائمة الموغلة فى التشاؤم واليأس من الحاضر، فالتطور والترقى من حال إلى حال سُنة من سنن الحياة ، وليس فى هذا التطور جحود ولا نكران للماضى وأمجاده ، والإسلام نفسه يرى فى المسلم ذريته ، ويرقب فى حاضره مستقبله ومستقبلهم فى ظل ممدود من الرجاء والثقة فى الله .

ونحن بداهة لا نستطيع تجاهل الحكم على عصرنا وعالمنا ما دمنا نعيش فيهما ، على أن الخطأ والصواب فى التقدير مردهما بداهة إلى الصدق والاعتدال ، ومن الأسف أن عالمنا لم يعد يحب الصدق ويحس بقيمته ، وراج الاستغناء عنه وشاع إمكان العيش بدونه ، ساعد على ذلك أن بالعالم قوى هائلة تعمل ضد الصدق عن قصد وعمد ، وتحاربه حربا مستورة بمهارة وكفاية ، وتزهد فيه الناس بكل حيلة ، وصار هناك من يسخرون من الصدق ، ويجرِّئون الناس على ازدرائه وامتهانه ، لأن هذه القوى لا تريد حدودًا تصادر على أغراضها أو أطماعها ، ذلك أن شيوع التعلق بالصدق يؤدى

إلى الإخلاص للحق ، وهذا الإخلاص يؤدى بدوره إلى الشجاعة واحترام النفس ، وهذه المثاليات تغلق مسالك لا يحب سالكوها أن تغلق أو أن تضيق منافذها عليهم !

ولا تنى هذه القوى الهائلة التى يقلقها الصدق ، تبحث عن بدائل يستعيض بها الناس عن الصدق والتعلق به ، وهذه الصناعة للبدائل لا تفتر ، لأن البدائل قصيرة العمر سريعة التحلل ، ويبدو أن الآدمى الذى تخلو حياته ـ مددا طويلة ـ من الصدق ، يصيبه نوع من ضمور الوجدان والعقل والشخصية ، وخواء يشبه الكساح النفسى .

والإنسان يفقد التعلق بالصدق حين يكف عن اعتباره قيمة مطلقة تعلو على نفسه وعلى مصالحه ومنافعه ، فحين نرهن الصدق بالنفع أو المصلحة ، نكون قد أفقدناه قيمته وألغيناه . ونحن نفقد الصدق حين ننسى أنه لا يعيش إلاّ إذا كان سقفا واحدًا لمشيئة البشر ، تقف عنده أهواؤهم وأغراضهم وأطماعهم ، بحسبان أنه أداة القياس النهائية التى تقاس بها وترتد إليها كل القيم !

*****